

العدالة...من "رولز" إلى "هابرماس"، ومن "هابرماس" إلى "رولز"

Justice... from Rowls to Habermas, and from Habermas to Rowls

روزة يونسى<sup>1</sup><sup>1</sup> جامعة "أبوسعده الله" الجزائر-2-الجزائر

younsi.roza@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/03/16 تاريخ القبول: 2022/04/04 تاريخ النشر: 2022/05/10

ملخص:

يتمحور البحث حول العدالة، وما يكتنف القضية ذاتها من عدم اتفاق بالغ، ولعل الدليل ما تحمله المناظرة الشهيرة التي دارت بين فيلسوفين كبيرين "جون رولز" و"يورغن هابرماس"، فالعدالة أهم إشكالية فلسفية ومطلب تسعى إليه الشعوب قاطبة، فهي فضيلة أخلاقية تتحدد قيمتها في تطبيقاتها العملية، وفي تجسيدها على أرض الواقع، ولا يكاد المرء يستطيع التفكير في مبدأ يضاهاى العدالة في أهميته لصالح الفرد ومن ثم صلاح المجتمع، فإذا اختلت موازينها اشتكى الناس من الظلم ونشبت الصراعات، ولهذا قامت ثورات عدة تسعى إلى تطبيق العدالة الاجتماعية لتحقيق النموذج الأسى للإنصاف والعدل.

تكمن أهمية الموضوع في تبيان أهم الإشكاليات التي تدور حول مفهوم العدالة، باعتباره أهم المواضيع الفلسفية ذات الطابع السياسي والاجتماعي، الذي تناوله "رولز" تنظيراً و"هابرماس" تواملاً وذلك في صلة ممتدة لفكر رولز. كلمات مفتاحية: العدالة، الظلم، الإنصاف، الجماعة، التواصل.

**Abstract:**

This research focuses on justice, and on the deep disagreement surrounding the issue itself, as well as on the evidence of the famous debate between John Rawls and Jürgen Habermas. Justice is the most important philosophical issue and a requirement that people seek, because it is a moral virtue whose value is determined in its embodiment on the ground. There have been revolutions that seek to apply social justice to achieve the supreme model of equity and justice.

The importance of the subject of justice in this research lies in the clarification of the most important problems that revolve around this concept, as it is the most important philosophical subject of a political and social nature that Rawls addressed theorizing and Habermas in the communication, in an extended connection to Rawls' thought.

**Keywords:** Justice; Injustice; Equity; Group; Communication.

المؤلف المرسل: روزة يونسى،

1. مقدمة:

تشكل مسألة العدالة فلسفة أساسية داخل حقل الاهتمام بالفرد والجماعة، في علاقته بالديمقراطية والتنوير والحداثة لكونها أحدثت ورشات بحث غنية من الحوارات مع مختلف تيارات الفلسفة الحديثة والمعاصرة، و قدمت أدوات ومفاهيم جديدة وصاغت قضايا وإشكاليات مهمة و رؤية جديدة للعالم المعاصر، ويمثل كل "جون رولز، John Rawls" (1921-2002) و"يورغن هابرماس، Jürgen Habermas" (1929- )، وجهين بارزين في الفلسفة السياسية المعاصرة.

ويعتبر مفهوم العدالة من المسائل التي أثار نقاش كليهما، فكتاب "نظرية العدالة" لجون رولز" يعتبر نقطة انطلاق في تحولات مفهوم العدالة في الأزمنة الحديثة عبر مختلف مدارس الفلسفة السياسية، حيث أثار بأطروحاته نقاشا واسعا ساهم فيه العديد من المفكرين والفلاسفة الذين ينتمون إلى مدارس فكرية مختلفة، أهمهم "هابرماس"، حيث تعتبر المناظرة الفلسفية الشهيرة التي دارت بينهما في منتصف التسعينيات، والتي نشرت على صفحات "المجلة الفلسفية الأمريكية" بمثابة الشرارة الأولى لانطلاق المناظرة.

سأبحث في إشكالية العدالة من خلال امتدادات الفكر الرولزي على رواد النظرية النقدية للجيل الثاني الممثلة في "هابرماس"، وذلك من خلال مناظرتيها المشهورة لأحدد بشكل أوضح فلسفة العدالة عند "جون رولز" و"يورغن هابرماس"، من حيث هي أخذ ورد، وذلك بالإجابة على الإشكالية الرئيسية لهذا البحث، فيما تكمن مسألة العدالة بين "جون رولز" و"يورغن هابرماس"؟

ينبثق من الإشكالية تساؤلات، ومنها فرضيات عدّة:

كيف فسر لنا "رولز" نظرية العدالة وما هو البناء المعماري لها؟ ما مدى تأثير ذلك على رائد الجيل الثاني (هابرماس) لمسة فرانكفورت؟ وهل يمكن اعتبار فهم "هابرماس" لمسألة العدالة استمرارا لنظرية العدالة عند "رولز"؟ وما علاقة العدالة بمجال النقد الذي انخرط فيه فلاسفة فرانكفورت عموما و"هابرماس" خصوصا؟ وبالتالي هل الاقتراحات التي قدمها "هابرماس" هي بديلا لتعديل نظرية العدالة لتكون أكثر واقعية؟ وهل ردود "رولز" على هذه الانتقادات والخلاف الأساسي بينه وبين "هابرماس" يكمن في مضمون المشروع الفلسفي العام الذي يسعى كل واحد منهما إلى بنائه؟ أم هناك حقيقة انعطافات لكليهما في مسألة العدالة السياسية؟

تكمن أهداف البحث في محاولة إثارة نقاش مسألة العدالة ورفع الستار عن أبرز فيلسوفين معاصرين (الأمريكي "جون رولز" والألماني "يورغن هابرماس") من خلال مناظرتيها، التي أصبحت نقطة انطلاق في أوساط الباحثين في الفلسفة السياسية والأخلاقية، تمّ من خلالها سد ثغرات نظرية العدالة وتجاوزها بالنسبة لروولز أو تطويرا للنظرية التواصلية بالنسبة لهابرماس، كما أنها فرصة تهدف إلى بلورت مفهوم العدالة السياسية عند كليهما، وإبراز الدور الذي تلعبه في حياة المجتمعات الغربية، ومن ثم أثر ذلك على مجتمعاتنا، وعلى حياة الإنسانية عموما.

للبحث في موضوع مسألة العدالة بين فلسفة "جون رولز" و"يورغن هابرماس"، وخاصة من خلال نقاشهما المباشر، اعتمدت على المنهج التحليلي النقدي المقارن، لمناظرة "هابرماس" و"رولز"، في محاولة لتوضيح المضامين الأساسية والجزئية لنقاشهما حول إشكالية العدالة.

2. في مفهوم العدالة عند "جون رولز" و"يورغن هابرماس":

1.2 العدالة عند "جون رولز":

في مؤلف جون رولز الشهير نظرية العدالة، Theory of Justice تمثل العدالة محور ارتكاز في الأخلاق والسياسة ضمن فضاء الفلسفة الاجتماعية العملية المعاصرة، وذلك لأن "العدالة هي الفضيلة الأولى للمؤسسات الاجتماعية، كما هي الحقيقة للأنظمة الفكرية" (جون رولز، 2011، ص 29)، لقد اهتم "جون رولز" بالعدالة من الناحية المفهومية، فدرس بذلك مفهوم العدالة الشكلية والمساواة الديمقراطية، بالإضافة إلى اهتمامه بكيفية تطبيق العدالة ضمن المجال الاقتصادي من خلال توزيع الثروات العادل بين أفراد المجتمع، فرولز يرى أنه يمكن الوصول لنظرية شاملة موحدة فيما يخص العدالة الاجتماعية، و بالأساس قضية العدالة التوزيعية، بمعنى كيف يمكن توزيع مزايا وأعباء التعاون الاجتماعي، ويضع الثقل في

## العدالة... من "رولز" إلى "هابرماس"، ومن "هابرماس" إلى "رولز"

هذا على تطويره لنظرية العقد الاجتماعي: "كيف توزع المؤسسات الاجتماعية الرئيسية الحقوق والواجبات الأساسية وتحدد توزيع مزايا التعاون الاجتماعي" (جون رولز، 2009، ص 301) ويقول رولز: "يقودنا الإحساس بالعدالة إلى تعزيز المخططات العادلة والقيام بدورها فيها حين نؤمن أن الآخرين، أو الكثير منهم بشكل كاف، سوف يقومون بدورهم" (جون رولز، 2011، ص 336). ولقد أراد رولز من خلال حديثه عن العدالة التوزيعية، ضرورة وجود بعض المنافع الأساسية لهذه العدالة، كالحصول على المساواة في الفرص والتي على أساسها يتم تسوية التفاوتات الاجتماعية والاقتصادية بين أفراد المجتمع وغيرها من الحقوق الأخرى كالحق في التعبير عن الرأي، والحق في الملكية الخاصة.

يقيم رولز العدالة الاجتماعية على مبدئين رئيسيين: الأول: هو أن لكل فرد الحق في المطالبة بالحريات الأساسية المتساوية، وبمنظومة اجتماعية تقوم على هذا، والثاني وجود شرطين لعدم المساواة الاجتماعية والاقتصادية، أولهما أنها ترتبط بإعطاء الكل المساواة في الفرص، والثاني: أن تكون عدم المساواة للفائدة العظمى للأعضاء الأقل حظوة في المجتمع، وهو ما يسميه مبدأ الاختلاف.

من جهة أخرى، أحاط جون رولز بالناحية الأخلاقية من خلال طرح قضايا الواجب والالتزام، وكل ذلك من أجل تحقيق العدل في المجتمع وجعله منظماً، فجعل من العدالة مبحثاً رئيسياً للخطاب الفلسفي العملي المعاصر.

كما نجد من بين الأفكار الأساسية التي تضمنتها نظرية رولز في العدالة، أن المجتمع عبارة عن منظومة للإنصاف في التعاون الاجتماعي بين أشخاص يصبحون أحرار ومتساوين بمرور الزمن، وهو لا يناقش هذه الفكرة بل يعتبرها بديهية، ويرى أن القراء سيتقبلونها كنقطة انطلاق معقولة (دايفيد جونستون، 2012، ص 247)، ويضع رولز نظريته التي يسميها العدالة كإنصاف، من أجل تطبيق ما يسميها البنية الرئيسية أو المؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في المجتمع، يتوفر النظرية مثلاً معيارياً لتقييم الأساس السياسي الدستوري للمجتمع، والترتيبات الاقتصادية والاجتماعية الأساسية (Colin Farrelly, 2004)، ويتطلب مبدأ العدالة عند "رولز" توفير حريات مهمة و معينة بالتساوي للجميع، وتتمتع هذه الحريات الأساسية بالأولوية على جميع قيم الرفاهية الاجتماعية، وتوفير فرص عادلة بالتساوي لجميع المواطنين، وهيكله الفروق في الدخل والثروة وفي المراتب الاجتماعية، بما يفرضي إلى ضمان الحد الأقصى من الفائدة للأعضاء الأسوأ حالاً في المجتمع (صموئيل فريمان، 2015، ص 14) إذا، للعدالة كإنصاف، يكون المعنى العام لأولوية الحق هو وجوب أن تدخل أفكار الخير المسموح بها في إطاره كمفهوم سياسي (جون رولز، 2009، ص 302).

من الأفكار الجوهرية أيضاً لفهم فلسفة "رولز" في نظرية العدالة: الوضع الأصلي، وهي فكرة مخترعة افتراضية، أين صرح رولز بأنه يجب علينا أن "لا نفكر بهذا الوضع الأصلي على أنه دولة تاريخية فعلية، ولكن كظرف بدائي من الثقافة، ويجب فهمه على أنه وضع افتراضي صرف، له هذه المواصفات حتى يقودنا إلى تصور معين للعدالة (جون رولز، 2011، ص 39)، وعليه، فالهدف من فكرة الوضع الأصلي عنده هي: "إعداد إجراء منصف بحيث تكون أي مبادئ متفقاً عليها عادلة (جون رولز، 2011، ص 181)، إن فكرة الوضع الأصلي عند رولز تقابل حالة الطبيعة عند فلاسفة العقد الاجتماعي، فيقول: "في العدالة إنصافاً يقابل الوضع الأصلي للمساواة دولة الطبيعة في نظرية العقد الاجتماعي التقليدية" (جون رولز، 2011، ص 39)، إلا أن رولز يرى أن فكرة الوضع الأصلي تعوض حالة الطبيعة لدى التعاقديين الأوائل، فبينما يشكل الأمن موضع انشغال أصحاب العقد الاجتماعي، نجد أن العدالة هي موضع اهتمام رولز الأول، فضلاً عن ذلك نجد أن رولز لا يعير أي اهتمام مثل أصحاب العقد الاجتماعي بالانتقال من حالة الطبيعة إلى حالة اجتماعية سابقة على الاجتماع، إنما يتعلق الأمر عنده بتحديد القوانين التي تعمل على ظهور مبادئ العدالة التي تقود مجتمعا قائما هو المجتمع الديمقراطي

(بومدين بوزيد، 2009، ص 143-144)، هذا الوضع الأصلي الذي يعتبره رولز موقفا نموذجيا وافتراسيا، يتحول فيه المتعاقدون إلى شخصيات مثالية باحثة عن مبادئ العدالة، بعيدا عن منطلق المساومة السياسية والاجتماعية، ذلك أن أطراف التعاقد لا يعرفون شيئا عن الذين يمثلونهم من ناحية المعتقدات والمواقف، فهم يقفون وراء حجاب الجهل الشهير في الأطروحة الرولزية، وعليه، يتصور رولز وضعية افتراضية "تجربة فكرية" تقدم الظروف الضرورية لإجراء عادل، تتطابق هذه الوضعية مع حجاب الجهل أو ما يدعى بستر الجهل، هذا المصطلح الأكثر أصالة في فكر جون رولز، حيث أنه في حالة هذا الستار يجهل الكل وضعيته الخاصة في المجتمع، ويجهل أيضا مؤهلاته الطبيعية، بل حتى مصالحهم الشخصية، ويكون الناس في هذه الوضعية الافتراضية، مكلفين بتحديد قواعد المجتمع الذي ينبغي إنشاؤه دون معرفة مسبقة بوضعيتهم الاجتماعية، فستار الجهل أو حجاب الجهل حسب رولز يجعل اختيارا موحدًا لتصور مميز للعدالة أمرا ممكنا (جان فرنسو دوتي، دون تاريخ، ص 207-208).

إن نشأت "جون رولز" في مجتمع أمريكي يتسم بالتعددية السياسية والثقافية والدينية، ساعده في بلورت أهم أفكاره، وكان حافزا له على البحث في إشكالية العدالة، وبذلك صاغ تصوره العام لها من خلال كل هذه الأفكار المتعددة والمتنوعة، وعليه ماهي النقاط التي أفاد بها "رولز" غيره وعلى رأسهم ممثل الجيل الثاني لمدرسة فرانكفورت الألماني "يورغن هابرماس" لبلورت مفهوم للعدالة؟

## 2.2 العدالة عند "يورغن هابرماس":

يعتبر كتاب الحق والديمقراطية الصادر في عام 1991 ليورغن هابرماس، أهم عمل في القرن العشرين بعد كتاب "جون رولز" في العدالة السياسية، وإن كان كتابه نظرية الفعل التواصلي الكتاب العمدة في مسيرته الفكرية والفلسفية، ففي نظرية الفعل التواصلي حاول فيه هابرماس تأسيس نظرية جديدة في علم الاجتماع تعتمد على التواصل البيداتي، ويعد التواصل المفهوم الأكثر مركزية في فلسفة "يورغن هابرماس" وبالتحديد في المرحلة الثانية من تطوره الفكري، فتجاوره لفلسفة أساتذته من مدرسة فرانكفورت، تعود إلى أهم إسهام له وهو نظرية الفعل التواصلي، *Théorie de l'agir communicationnel* بجزئيه، واللذين يشكلان مفصلا رئيسيا في مسيرة هابرماس الفكرية، فالجزء الأول الذي يعتبر الجزء المفاهيمي من الكتاب، بعنوان فرعي: العقل وعقلنة المجتمع، صدر بالإنجليزية عام 1984، اهتم فيه "هابرماس" بتمييز مفهوم الفعل التواصلي عن غيره من الأفعال، مثل الفعل الأداتي أو الاستراتيجي، أما الجزء الثاني، بعنوان فرعي هو: العالم المعيش والنظام، نقد العقل الوظيفي، فصدر بالإنجليزية في عام 1987، اهتم فيه الفيلسوف بالحديث عن المجتمع ومكوناته، ووضح فيه أن المجتمع يتكون من مجالين أساسيين هما: العالم المعيش الذي يشكل موطننا للتواصل، والنظام الذي يشكل موطننا للفعل الأداتي (أسماء حسين ملكاوي، 2017، ص 107-108).

صنف "هابرماس" أفعال الكلام، محددًا وظيفة كل فعل والهدف منه، مبرزًا نوعية ادعاء الصلاحية الذي يناسب كل فعل، وكذلك الأمر بالنسبة للعالم الذي يتعلق به، وعليه، فثمة مستويات للنشاط التواصلي أو أصنافا لأفعال الكلام على النحو الآتي (Jürgen Habermas, 1987, pp101-115): الفعل الاستراتيجي والفعل المنظم بواسطة معايير، ثم الفعل المسرحي وأخيرا الفعل التواصلي، بحسب "هابرماس" يدمج هذا الأخير النماذج السابقة، لأنه يأخذ بعين الاعتبار كل وظائف الكلام، لهذا فإن مبدأ النشاط التواصلي يفترض الكلام مسبقا كوسيط لقضايا التفاهم المتبادل من طبيعة معينة.

إن التواصل كما يدركه "هابرماس" يرثي بالأحرى اعتماد اللغة فيما يمكن أن نطلق عليه المظهر التداولي، إنه هو اللغة التي تنجز أو تنتج شيء ما (جان غروندان، 1987، ص 25)، فالتواصل الهابرماسي مطابق للغة، فهي الحامل الأساسي لمختلف الشبكات التعبيرية، فهي "عملية لغوية - سلوكية دائمة تنشط في اتجاه لطرح الشكل التركيبي للعقل العملي كما يجب أن يكون" (مطاع صفدي، 1987، ص 11)، بمعنى أنها تتم لتوجيهات التفاهم اللغوي، كما أنها تحيل إلى العلاقة بالعالم، علاقة يقيّمها أفراد يتصرفون بطريقة تواصلية، وهؤلاء والأفراد هم من يسميهم هابرماس بجماعة الفاعلون الذين يسعون إلى التفاهم حول موقف لكي ينسقوا بصورة توافقية، خطط عملهم ومن ثم أفعالهم "وفي نموذج الفعل هذا تحتل اللغة مركزاً رفيعاً" (يورغن هابرماس، 1987، ص 23). فاللغة التواصلية بالنسبة إليه وسيلة وسلوك اتصالي ومقوم للفعل التواصلية، الذي يثمن الحوار والنقاش داخل مجتمع تعددي اختلافي، من ثم هي أداة لترسيخ قيم الحرية والعدالة.

لضمان العدالة ظهرت أخلاقيات النقاش عند "هابرماس" كجزء من مشروع أكبر، من أجل الحفاظ على مشروع التنوير في التحرر السياسي والديمقراطي، أو على الأقل إعادة بناء شكل جديد لهذا المشروع، وتشير إلى النهج الذي أخذه هابرماس لتطوير نظريته الخلقية، وتعتبر أخلاق المناقشة نظرية سياسية أكثر منها نظرية أخلاقية، مفاهيم كالديمقراطية التشاورية و الفضاء العام والإجماع والكونية وغيرها هي مفاهيم كافية لتصنيف أخلاق المناقشة في دائرة الإتيقا السياسية، وأخلاق المناقشة ذات طابع نقدي، لأن المعايير التي تضبطها ليست مرتبطة بالأحاسيس أو القرارات والغايات الشخصية، بل هي مؤسسة على "إمكانية تبريرها تبريراً عقلانياً اعتماداً على العملية الحجاجية" (Jürgen Habermas, 2001, p 275).

يدعو "هابرماس" إلى تفعيل دور العقل انطلاقاً من مشروع الحدائثة غير المكتمل، مستفيداً في ذلك من فلسفة هيدغر الأنطولوجية التي تركز على وجود الإنسان في العالم مع الآخرين (الوجود مع) وبحكم ميل نظريته التواصلية إلى الحياة الاجتماعية أكثر من الفكر الفلسفي، فكان الحضور القوي لـ"ماكس فيبر" و"دوركايم" و"بارنسونر" وغيرهم، إن علم الاجتماع في خصوصيته يصادف مسألتين في فهمه حسب تعبير "هابرماس": "مسألة تطبيقية (علم الحركة والفعل) قادرة على شرح المعنى الذي تكون فيه (الأفعال/الحركات) الإنسانية قابلة لأن تكون عقلانية ومسألة إبستمولوجيا النظرية (المعارف/المعلومات) تحدد الظروف التي يمكن للمنظر أن يحيط عملياً فيها هذه الأفعال والحركات" (جون فرانسوا دورتي، 2009، ص 158-160)، لذلك نجد هابرماس يربط بين ميادين عدة لتأسيس نظرية الفعل التواصلية معتمداً في البداية على التحليل الماركسي، فهابرماس يعمد إلى الدمج بين فروع المعرفة من لسانيات وفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس، فأليات التحليل النفسي الفرويدي الذي يقوم على الحوار السريري بين المريض والطبيب لكشف العطب وبالتالي إيجاد الحلول المناسبة عن طريق قوة الحجة والبرهان، وهذا ما يدعوه "هابرماس" بأخلاقيات التواصل، يهتم هابرماس بالواقع من أجل إيجاد قيم كونية.

إن الخطاب القائم على النقاش لدى "هابرماس" يساهم في تحقيق قيم نعجز عن تحقيقها بوسائل وأدوات أخرى كالحرية، والعدالة، والديمقراطية، وهي تتحقق في إطار إدراكنا للمصالح والمعايير المشتركة وفي حالة عدم إتفاق حول موضوع النقاش فلا مجال للحل الوسط، بل الاتفاق النهائي هو الذي يجب أن يسود، وهذا ما يسميه "هابرماس" بالعقلاني حيث العقل "هو الوحيد الذي يستطيع أن يميز بين المقولات والأحداث، فيقبل ما يتفق مع قواعده وينبذ كل ما خرقتها وما لم يكن ملائماً لها" (التركي فتحي، 2009، ص 140).

3. في نقد فلسفة العدالة الرولزية والهابرماسية:

1.3 "هابرماس" في مواجهة "رولز" (أوجه الاختلاف):

تعتبر العلاقة بين جون رولز ويورغن هابرماس غير متناسبة زمنيا، ذلك لأن اهتمامات "رولز" بالأطروحات الفلسفية لهابرماس لم يتم إلا في مرحلة متأخرة من تطوره الفكري، وأساسا خلال نقاشهما المباشر الذي أجري في صفحات المجلة الفلسفية الأمريكية، **The Journal of Philosophy** عام 1995، وعلى العكس من ذلك بدأت اهتمامات "هابرماس" بأعمال "رولز" مبكرة جدا، حيث كان من أوائل الفلاسفة الأوروبيين اللذين تناولوا أطروحات "رولز" السياسية بالتحليل والنقد، خاصة ما تعلق بالعدالة، فهابرماس حاول بداية الثمانينات في كتابه الأخلاق والتواصل الصادر عام 1983، أن يدمج نظرية العدالة كإنصاف في أعماله الخاصة، وهي مرحلة مهمة جدا من التطور الفكري الخاص لهابرماس، خصوصا في اتجاه صياغة نظرية الحق والديمقراطية، أين ظهر استمرار اهتمامه في كتاب **إتيقا الحوار** عام 1992، من ثم كتابه الرئيس في فلسفة الحق الصادر في نفس العام تحت عنوان: **القانون والديمقراطية**. بعدها وبدعوة من المجلة الفلسفية الأمريكية عام 1995، يُكَلَّل هذا الاهتمام الأحادي بنقاش متبادل، في شكل مقالتين: نقد من هابرماس ورد على نقد من رولز، وكان الفضل لهابرماس في انطلاق وافتتاح هذا النقاش العميق بمقالة مُعنونة: "التصالح من خلال الاستعمال العمومي للعقل، ملاحظات حول الليبرالية السياسية عند جون رولز"، ليرد عليه "رولز" بمقالة: "رد على هابرماس"، لكن "هابرماس" لم يكتفي بذلك، بل أراد من النقاش أن يختمه، بمقالة أخرى بعنوان: "العقل والحقيقة في ليبرالية رولز"، وهذه المقالة لم تنشر على صفحات المجلة، بل ستجمع فيما بعد لتشكّل المادة الرئيسية لكتاب نقاش حول العدالة السياسية الصادر في عام 1997.

يعتبر النقد السمة المميّزة لنظرية فرانكفورت، ولم يتجاوز "هابرماس" سمة النقد هذه، التي تميز رواد النظرية النقدية، فلقد انتقد "هابرماس" "رولز" في نظريته للعدالة من ثلاثة وجوه (عبد الغني بوالسكك، 2013، ص 321): الوجه الأول: يتعلق بالوضع الأصلي، والثاني: بعدم تفكيك رولز بين الإنتاج العقلي لنظريته وقبولها، وأما الوجه الثالث: يتمثل في عدم نجاحه في تحقيق هدفه وغايته، بالجمع بين أساسيتين هما الحرية والمساواة.

في المقابل، يُعيب "رولز" على نظرية "هابرماس" كونها نظرية ميتافيزيقية لأنها تفترض إشارات أنطولوجية تتعلق بطبيعة العلاقات الإنسانية، فما هو موجود فعلا بحسب "هابرماس"، هم الأشخاص الذين يتواصلون، لذلك فهو يعيد بناء الفرضيات اللغوية المتضمنة في الحوار، ويعتبرها حقيقية، في المقابل تبني نظرية "رولز" مبادئ العدالة بالاستناد إلى المؤسسات الموجودة في المجتمع.

لم يسلم "رولز" من اعتراضات في اتجاهات مختلفة، حيث أثار جدلا واسعا بإعادة طرحه لفكرة الانصاف، التي تقود إلى مبادئ العدالة كمبادئ أفرزها الوضع الأصلي، المتصف بالإنصاف المنبثق من ذات محايدة، تولى أهمية وتعطي أولوية للعدل وللحق على حساب الخير أو السعادة، إذا، للعدالة كإنصاف، يكون المعنى العام لأولوية الحق هو وجوب أن تدخل أفكار الخير المسموح بها في إطاره كمفهوم سياسي (جون رولز، 2011، ص 302)، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، الفلسفة السياسية الرولزية من بعد أن وضعت المساواة التوزيعية في المقام الأول، عادت لتتعارض ومرتكزات الحرية الإنسانية التي وضعها "رولز" في الصدارة، كامتلاك الإنسان لذاته ولخبراته على الإطلاق، كما أن النقد الجماعاتي، وخصوصا الساندلي (نسبة إلى "مايكل ساندل")، سيتحرى عن أخطار الليبرالية، في شقيها المعتدل والمتطرف، في إضعاف وحدة الجماعة التاريخية وتماسكها السياسي، من جراء تنامي الفردانية التي عززتها حرية السوق، ولما كان السوق لا يقوم التفضيلات والتذوقات الفردية، كانت كلها متساوية، النبيلة منها والرديئة، بوصفها قيما أخلاقية تعتبرها النسبية، وهو ما يفسر إفساد السوق لمختلف العلاقات الاجتماعية وإرجاعها كلها إلى الماديات، إن العدالة تتعلق بما هو أكثر من هذا، وفي

هذا الإطار تأتي قضية التداخل بين ما هو سياسي وما هو اقتصادي في قضية العدالة الاجتماعية، فالربط بين الطبيعة السياسية والاقتصادية للعدالة الاجتماعية، لا يقتصر فقط على راديكاليين في نظرتهم للرأسمالية كـ"ديفيد هارفي"، وإنما يمتد لليبراليين المساواتيين كـ"أمارتيا صن" وهو أحد تلامذة "رولز"، الذي يعنون أحد كتبه باسم التنمية حرية، ويظهر في تعامل "صن" مع الانتقادات التي وجهت لرولز، من حيث أنه يقدم نموذج المؤسسات المثالي في مقابل الواقع وسلوك الأفراد اللذين يجب أن يتغيرا في اتجاهه، ويؤكد أن نقطة البدء في العدالة الاجتماعية هي تشخيص الظلم وتحليله تمهيدا لرفعه، ويرى في كتابه فكرة العدالة أن إدراك المظالم التي يمكن رفعها لا يدفعنا إلى التفكير في العدل والظلم فحسب، بل هو لبّ نظرية العدالة أيضا، وينقل صن، التعريف من منطقة المثالي فيما يجب أن تكون عليه المؤسسات وكيف يكيف الناس سلوكهم للتوافق معه (وهو انتقاد رئيسي تم توجيهه لنظرية "رولز")، إلى واقع وحياة الناس، من هنا يرى صن أن نظرية العدالة يجب أن تنطلق لا من التركيز على المجتمع العادل، وصورة المؤسسات المطلوبة فحسب، بل بالأساس على المقارنات القائمة على الواقع لرصد تفهقر وتقدم العدالة، وعلى رأس هذه المؤشرات صور عدم المساواة غير المنصفة (أمارتيا صن، (2010)).

إذا، هناك دائما قضية التناقض المعياري والعملي فيما يتعلق بالعدالة الاجتماعية، إذ قدم الليبراليون المساواتيون على رأسهم "جون رولز" مساهمة ملموسة في تقديم نظرية للعدالة الاجتماعية، تحاول التعامل مع هذه المعضلة، من خلال مفاهيم كالمساواة في الحصول على الفرص أو المساواة في القدرات، وعلاقة المؤسسات في صورتها المثالية بتطور الواقع ومحاصرة الظلم و اللاعدل، غير أن انتقادات جوهرية توجه لليبراليين المساواتيين من حيث أن الأساس النظري لأفكارهم هو الحرية الفردية بالمعنى الليبرالي اقتصاديا، وبالتالي فإن هذا يخلق تناقضا مستمرا بين صعوبة الإصلاح في ظل الاستمرار في ظل الرأسمالية بميكانيزماتها وألياتها، بينما النظرية معياريا ضد الرأسمالية كنظام (Alex Callinicos, 2001).

### 2.3 النقاش العائلي بين "رولز" و"هابرماس" (أوجه التشابه):

على الرغم من جميع الاختلافات والاعتراضات التي وجهها الفيلسوفان بعضهما إلى بعض من خلال هذا النقاش، إلا أن "هابرماس" يقول: "ولأنني معجب بهذا المشروع (نظرية العدالة)، أتقاسم نياته الأساسية، وأعتبر أن نتائجه الأكثر أهمية صحيحة، فإن الاعتراض الذي طُلبت مني صياغته هنا يبقى في إطار النقاش العائلي"، حيث كان للفلسفة والثقافة الأمريكية عموما دور هام ليس في صقل مواهب هابرماس فحسب بل في تأثيرها على الثقافة الألمانية ككل، حيث يقول في كتابه كتابات سياسية كادت الثقافة الألمانية أن تكون في أسوأ حالها لولا تأثير الثقافة السياسية الأمريكية التي استقبلتها ألمانيا و استوعبتها في العشرينات الأولى بعد الحرب" (Jürgen Habermas, (1978), p 87) فكان الفضل لهابرماس إلى جانب آبل في إدخال الفلسفة الأمريكية للجامعات الألمانية، إلى جانب السجال الذي دار بين "هابرماس" و الفلاسفة الأنجلوساكسونيون المعاصرين من أجل تطوير نظريته التشاورية في الديمقراطية فكان السجال مع رولز ووروتي و بذلك انفتح هابرماس على الفلسفة السياسية الأمريكية مستفيدا منها في بناء مشروع الفلسفة والسياسي، و يعد كتاب نظرية العدالة لرولز أهم وسيلة لذلك حيث يقول "هابرماس": "أنا لا أعقد صلة بين نظرية التواصل مع جون لوك، إنما مع الهرمونيطقا ومع البراجماتية الأمريكية (يورغن هابرماس، (2016)، ص 213).

يعتبر النقاش الفلسفي المباشر بين الفيلسوفين: "رولز" و"هابرماس"، والذي تحول بينهما إلى طرق غير مباشرة في الكتابات اللاحقة بينهما، حيث يظهر التأثير المتبادل بينهما، فبالنسبة إلى "رولز" سيدخل بعض التعديلات على نظرية العدالة خاصة في كتابه الأخير العدالة بوصفها إنصافا إعادة صياغة، ونفس الأمر بالنسبة إلى "هابرماس" باعتبار مساهمته

المنشورة في المجلة تطويرا لنظرية الفعل التواصلي، انطلاقا من الفلسفة السياسية الأمريكية، ولا يخفى للمطلع على المناظرة، مدى الأهمية التي تحتلها الفلسفة السياسية لروزل في المتن الفلسفي لهابرماس، وتحديدًا خلال التسعينيات من القرن المنصرم، أصبحت تحليلاته اقرب إلى الفلسفة السياسية الأمريكية منها إلى النظرية النقدية للجيل الأول لمدرسة فرانكفورت، فقد ركزت المناظرة الفلسفية التي دارت بينه وبين "روزل" على العدالة في بعدها السياسي أكثر من بعدها الاجتماعي، كما هو متداول في النظرية النقدية في صيغتها الأولى هذا من جهة، ومن جهة أخرى فكتابات هابرماس المتأخرة حول الدين، كان فيها أكثر ميلًا إلى المقاربة الرولزنية إذ خفت حدة النقد الجذري للدين.

يتفق كلا الفيلسوفان حول واقع أن كل مقارنة تيلولوجية أو كاملة غير ممكنة، ومن الضروري تمييز القضايا الخاصة بالخير من التي تخص الاختيارات الأكسيولوجية والتفضيلية لدى كل فرد، ذلك أنه لا يمكن أن تقدم النظرية الفلسفية بالنسبة إلى كليهما (روزل وهابرماس) والمنتميين إلى المرجعية الفكرية الكانطية نفسها، جوابًا إلى عن المسائل الأولى (العدل)، ويجب أن تتخلى عن كل اقتراح إتيقي، فإن نقطة الاختلاف بينهما تتمثل في التساؤل: إلى أي درجة يمكن حمل هذا الاقتضاء؟ أي، ماهي الاكراهات التي يفرضها هذا الاقتضاء في صياغة نظرية معيارية؟، وإذا كان روزل يعتبر أنه يقترح تصورا سياسيا محضا للعدالة (كما سبق الذكر)، فإن هابرماس في المقابل يعتقد أن كل منظور نقدي لا يمكن أن يتنازل عن شيء معين من التأسيس الفلسفي للأخلاقية عموما بوسائل نظرية للعقل التواصلي (عبد العزيز ربح، 2019، ص 242).

على العموم، يعتقد محللون كثير أنه فيما وراء التماثلات الكثيرة التي يمكن ملاحظتها بين نظرية العدالة ونظرية الحوار، إن التشابه الرئيس يمكن أن يلمس في إجراء التمثيل المعتمد في كلتا النظريتين لتأسيس القواعد والمعايير القانونية وشرعنتها، أي إجراء الوضعية الأصلية في نظرية العدالة والوضعية المثلى للكلام في نظرية الحوار (عبد العزيز ربح، 2019، ص 227)، ومن أبرز المدافعين عن هذا الموقف، الفيلسوف الفرنسي "ألان رينو" الذي يُلح على أن النقاش الذي دار بين روزل وهابرماس لا يعدو أن يكون نقاشا ينم عن سوء تفاهم... (Alain Renaut, 1993, p 125)، ويبقى النقاش الظاهر بينهما يحصل على الرغم من الاختلافات كلها تحت مرجعية واحدة هي الإتيقا الكانطية (عبد العزيز ربح، 2019، ص 197-242).

رغم أن السعي لتقليص التفاوت ومواجهة عدم المساواة، هما مكونان أصيلين في أي مسار للعدالة الاجتماعية، غير أن المساواة ليست كل شيء كما رأينا في نظرية روزل، التي تجد الإنصاف والعدالة في بعض أشكال عدم المساواة التي تحابي الضعفاء والفقراء، كما أنها ليست قائمة على العقلانية التواصلية وإتيقا الحوار وأخلاقيات النقاش، كما رأينا عند "هابرماس"، وعليه، تبقى امكانية تطبيق العدالة الاجتماعية يثير عدد من الاشكاليات سواء من حيث المفهوم أو السياسات، وتبقى محاولة استطلاع وفهم العضلات التي ترتبط بتعريف العدالة، تمثل مقدمة لازمة لاستهداف تأطيره، كما يعتبر الفهم الحقيقي لها، من يساهم في تضيق الفجوة بين نظرية العدالة، وبين واقع تطبيقها على المواطنين، فالاستناد على ما أثمرته جهود "روزل" و"هابرماس" لكفيل بذلك ولو كان ذلك جزئيا أو نسبيا (روزة يونسى، 2019، ص 51)، ولعلّ "التعاطف في مطلب التضامن والاتحاد والتوحيد العربي من جهة، وفي مطلب العدالة الغائبة في حياة المجتمعات العربية المعاصرة من جهة أخرى، هو السر العميق لاهتمام العرب المثقفين بهاذين الفيلسوفين" (أسماء حسن ملكاوي، 2017، ص 11).

#### 4. خاتمة:

إن موضوع البحث خلّص إلى عدة نتائج وتوصيات، ولعلّ أبرز النتائج وأهم الاقتراحات يمكن إجمالها فيما يأتي:



### العدالة...من "رولز" إلى "هابرماس"، ومن "هابرماس" إلى "رولز"

تحاول الفلسفة السياسية المعاصرة التفكير في صلاحية الممارسة السياسية وإعادة النظر في البنية الاجتماعية للمجتمعات المعاصرة، والسعي إلى الحد من المشكلات التي تطرحها المتغيرات الاجتماعية المعاصرة، وعلى رأسها إشكالية العدالة، ولعلّ أبرز هذه النظريات السياسية المعاصرة: النظرية الليبرالية التعاقدية للفيلسوف الأمريكي جون رولز، والنظرية التداولية للفيلسوف الألماني يورغن هابرماس، إذ يعتبر هذان الفيلسوفان بحق من المفكرين القلائل الذين استطاعوا إضفاء الشرعية على الأنظمة الديمقراطية، فالأول باقتراحه أنموذج تنظيمي بديل يجعل فضيلة العدالة مصدرا لشرعية البناء السياسي، والثاني بفضل نظريته التواصلية في مجال الحق والسياسة، جاعلا من النقاش والتواصل كقاعدة لشرعنة الإجراء الديمقراطي.

5. قائمة المراجع:

- أسماء حسين ملكاوي، (2017)، أخلاقيات التواصل في العصر الرقمي، هابرماس أنموذجا، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، الطبعة 1.
- أمارتيا صن، (2010)، فكرة العدالة، ترجمة مازن جندلي، الدار العربية للعلوم، بيروت.
- بومدين بوزيد، (2009)، فلسفة العدالة في عصر العولمة، الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر، الطبعة 1.
- التريكي فتحي، (2009)، العقل بين التجربة العلمية والتجربة العملية، الدار المتوسطة للنشر، تونس، الطبعة 1.
- جان غروندان، (1987)، العقلانية والفعل التواصلي عند هابرماس، ترجمة: سعيد علوش، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 43.
- جان فرنسو دوتي، فلسفات عصرنا تياراتها مذاهبها، أعلامها وقضاياها، ترجمة: إبراهيم صحراوي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، الطبعة 1.
- جون رولز، (2009)، العدالة كإنصاف، ترجمة: حيدر حاج اسماعيل، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة 1.
- جون رولز، (2011)، نظرية في العدالة، ترجمة: ليلى طويل، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق.
- جون فرانسوا دورتي، (2009)، فلسفات عصرنا مذاهبها، أعلامها، وقضاياها، ترجمة: إبراهيم صحراوي، منشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة 1.
- دايفيد جونستون، (2012)، مختصر تاريخ العدالة، ترجمة: مصطفى ناصر، عالم المعرفة، الكويت.
- روزة يونسى، (2019)، العدالة الاجتماعية... إشكاليات المفهوم والسياسات، مجلة المري، المعهد الوطني للتكوين العالي لإطارات الشباب، الجزائر، العدد 22.
- صموئيل فريمان، (2015)، اتجاهات معاصرة في فلسفة العدالة جون راولز نموذجا، ترجمة: فاضل جتكر، المركز العربي لأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، الطبعة 1.
- عبد الغني بوالسكك، (2013)، فلسفة العدالة الكونية عند جون راولز، مجلة الأحياء، جامعة الحاج لخضر، باتنة، العدد 16.
- مطاع صفدي، (1987)، التداولي والتواصلي، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القوم، بيروت، العدد 46.
- يورغن هابرماس، (1987)، العلاقة بالعالم ومظاهر عقلانية الفعل، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 46.
- يورغن هابرماس، (2016)، الدين والعقلانية، ترجمة: حسن صقر، دار الحوار، الطبعة 1.
- Alain Renaut, (1993), Habermas ou Rawls?, Reseaux, vol 11, no.60.
- Alex Callinicos, (2001), Equality Themes for the 21st Century Series, London, Polity.
- Colin Farrelly, (2004), Contemporary Political Theory A Reader, London, Sage Publications.
- Jürgen Habermas, (1978), l'espace public, Archéologie de la publicité comme dimension constitutive de la société bourgeoise», Paris, Ed Payot.
- Jürgen Habermas, (1987), théorie de l'agir communicationnel", T1, Rationalité de l'agir et rationalisation de la société, Trad: Jean Marc Ferry, Fayard, Paris.

العدالة...من "رولز" إلى "هابرماس"، ومن "هابرماس" إلى "رولز"

- Jürgen Habermas, (2001), Vérité et justification, Trad: Rainer Rochlitz et Christian Bouchindhomme, Gallimard.
- Jürgen Habermas, (2005), Logique des sciences sociales et autres essais, Trad: Rainer Rochlitz, Presses universitaires de France, Paris.